(٤)

" أعداء الله تعالى من شياطين الإنس والجنّ حق عليهم القول بدخول جهنّم "

الآيات (١٩ - ٢٩)

وتجاه إصرار كفّار مكّة على الإعراض يتحول السّياق إلى الحديث عن هوان أعداء الله تعالى يوم القيامة ثمرةً نكدةً لكفرهم وصدّهم عن سبيل الله تعالى. واذكر يا محمّد لقومك يوم القيامة الّذي يُحْشَر فيه أعداء الله تعالى إلى النّار فهم يُجْمعون ثمّ يساقون مجتمعين إلى نار جهنّم. حتّى إذا ما جاء المشركون نار جهنّم وأنكروا سيّئات أعمالهم شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم وفروجهم بما كانوا يأتون من قبائح الأعمال. وبما أنّ الجلود أدلت بالشّهادة كما يفعل العقلاء فإنها تخاطب كأنها من العقلاء. وقال المشركون المجرمون لجلودهم وفروجهم في أسلوب الاستفهام الإنكاري: لم شهدتم علينا ونحن الّذين دافعنا عنكم وكذبنا من أجلكم ! قالت الجلود والفروج : أنطقنا الله تعالى الّذي أنطق كلّ شيء وأدّينا الشهادة. والله تعالى هو الّذي خلقكم أوّل مّرة وإليه ترجعون للحساب والجزاء، وهذا هو الحساب، ويليه الجزاء. وأنتم في الدّنيا ما كنتم تستترون مخافة أن يشهد عليكم سمعكم وأبصاركم وجلودكم وفروجكم باجتناب القبائح وهجر الفضائح. ولكنكم أتيتم السيّئات لأنكم ظننتم أنّ الله سبحانه وتعالى لا يعلم كثيراً ممّا تعملون من سيّئات، وتكتسبون من آثام. وذلك الظّنّ الذي ظننتموه بأنّ الله تعالى لا يعلم كثيراً مّما تعملون هو الّذي ألقى بكم في مهاوي الرّدى فأتيتم المنكرات وأصبحتم من الخاسرين بدخول النّار وبئس القرار.

فـــإن يصـــبر المشركون المجرمون على العذاب فالنّار مثوىً لهم وسكنٌ معدٌّ من أجـــلهم، وإن يجـــزعوا ويطلـــبوا مـــن الحقّ جلّ وعلا أن يعودوا إلى عمل ما يرضيه بإخراجهم من النّار وإعادتهم إلى الحياة الدّنيا فما هم من المستجاب لهم، المرضي عنهم، الّذين تُقالُ عَثَراتُهُمْ، وتُلَبَّى طلباتُهُمْ.

وبسبب إصرار المشركين على الكفر والصّدّ عن سبيل الله تعالى وإتيان الموبقات زاد الله تعـــالى بصائرهم عمى فسلّط عليهم وأغرى بهم رفقاء من شياطين الجنّ والإنس فزيـــنوا لهم ما بين أيديهم من الأعمال السّيّئة الّتي أتوها في الحياة الدّنيا، وما خلفهم من أمـــور الآخـــرة فأقنعوهم بأنّه لابعث ولا حساب ولا جزاء ولا جنّة ولا نار. وكانت النّتيجة السّيّئة والثّمرة النّكدة أنهم حقّ عليهم قول الله تعالى بملء جهنّم من الجنّة والنّاس أجمعين، في جملة أمم قد مضت من قَبل كفّار مكّة من الجنّ والإنس. إنّهم جميعاً كانوا خاسرين بدخول النّار.

ومن مظاهر ضلال كفّار مكّة وصدّهم عن السّبيل في الحياة الدّنيا أنّهم قالوا لمن يطيعونهم من المشركين: لا تسمعوا لهذا القرآن حينما يُتْلَى عليكم كيلا يأسِرَكم بسحر بـــيانه، والْغَوْا فيه وصيحوا وارفعوا أصواتكم بأيّ كلامٍ لا معنى لـــه ولا فائدة منه كي تحولـــوا بـــين القرآن وبين أن يسمعه غيركم، لعلّكم بهذا اللّغو من القول تغلبون محمّداً والمؤمنين فلا يدخل أحدٌ في الإسلام!

فلـــيذيقنّ الله تعالى الّذين كفروا عذاباً شديداً في الحياة الأولى، وليجزينهم أسوأ جزاء الّذي كانوا يعملون من سوء. إنّ ذلك الخزي والعذاب في الآخرة جزاء أعداء الله تعـــالى. إنّهـــا نار جهنّم لهم فيها دار البقاء والخلود، جزاءً لهم بسبب ما كانوا بآياتنا يجحدون، ولمعجزاتنا ينكرون.

ومـــن مظاهر حسرة الكافرين وهم في أعماق الجحيم قولهم: يا ربّنا أرنا اللّذين أضـــلاّنا عـــن سواء السّبيل من الجنّ، وعلى رأسهم إبليس اللّعين، ومن الإنس، وعلى رأســـهم قابيل، أحد ابني آدم عليه السّلام، الّذي قتل أخاه هابيل، لأنّ الحقّ جلّ وعلا تقـــبّل مـــن هابـــيل قربانه لتقواه ولم يتقبل من قابيل، فحسد أخاه فقتله. إنّ الكافرين يسألون الحقّ جلّ وعلا أن يريهم في النّار اللّذين أضلاّهم عن طريق الهدى وقاداهم إلى مهـــاوي الرّدى، من الجنّ والإنس كي يجعلاهما تحت أقدامهم ليكونا من الأسفلين في دركات الجحيم وقعر جهنّم.

(٥)

" لا أحد أحسن قولاً ممّن دعا إلى الله تعالى وعمل صالحاً وقال إنّني من المسلمين "

الآيات (٣٠ - ٣٦)

إنّ هـــنالك المؤمـــنين المتّقين في مقابل الكافرين المجرمين. وإنّ الحديث عن هؤلاء المؤمـــنين المتّقين من وسائل حثّ الكافرين على الانضمام إلى فريق المؤمنين. إنّ الّذين قالوا ربّنا الله تعالى وحده لاشريك له وشهدوا أنّه لا إله إلاّ الله تعالى، ثمّ استقاموا على توحيد الله تعالى، ولم يخلطوا توحيدهم بشرك، تتنّزل عليهم عند نزول الموت بهم ملائكة الـــرّحمة، بـــألاّ تخافوا ممّا تقدمون عليه بعد مماتكم من قبر وبعثٍ ونشورٍ وحساب، ولا تحـــزنوا عـــلى مـــا تخلّفونه وراءكم من أهلٍ وولدٍ وأحبابٍ ومال وجاهٍ وما إلى ذلك. وأبشـــروا بالجـــنّة الّتي كنتم توعدون في الحياة الدنيا. نحن أولياؤكم والحفظة الّذين كنّا معكم في الحياة الدّنيا، ونحن الحفظة لكم في الآخرة كذلك والأولياء. ولكم في الجنّة ما

تشتهيه أنفسكم من أنواع الملذات، ولكم فيها ما تطلبون من ضروب النّعيم. نزلاً لكم من ربّ غفورٍ لذنوبكم، وإكراماً معدّاً لكم من ربّ رحيمٍ رحمةً خاصّةً بكم.

إنّـــه لا أحـــد أحسن قولاً ممّن دعا إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، وعمل عمـــلاً صـــالحاً أراد بـــه وجه ربّه الأعلى، وقال إنّني من المسلمين لله تعالى ربّ العالمين، المخلصـــين، المطـــيعين المذعنين. وهكذا جمع هذا الدّاعي إلى الله تعالى بين صدق الإيمان بالقلب، وصلاح العمل بالجوارح، والدّعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بـــالّتي هـــي أحسن. وبذلك كان هذا الدّاعية الأسوة الحسنة بصدق إيمانه وصلاح عمله. والآيـــة الكريمة تبيّن أهمّ الشّروط التي ينبغي توافرها في الدعاة إلى الله تعالى وهذه الشروط إعلانٌ باللّسان لما يُكنّه الجَنان من إيمان، وعملٌ بالأركان. هذه هي مقوّمات الأسوة الحسنة في الدّعاة إلى الله تعالى، وهذه هي شروط نجاحهم بإذن الله تعالى.

إنّ الحسنة لا تستوي بالسّيّئة،وإنّ الإيمان غير الكفر، وإنّ المؤمن غير الكافر وإنّ الحســـنة درجات، كما أنّ السّيّئة دركات. إنّ حسَنة الّذي يدعو إلى الله تعالى ويعمل صالحاً ويقول إنّه من المسلمين أرفع من حسنة الذي يكتفي بالإيمان قولاً وعملاً فقط. وكما أنّ الحسنات درجاتٌ إلى أعلى. كذلك السّيّئات دركاتٌ إلى أسفل.

وهنالك خصلةٌ لا يؤتاها إلاّ الّذين صبروا والّذين لهم حظٌّ عظيمٌ ونصيبٌ موفور من ســـعادتي الدّنيا والآخرة. أمّا هذه الخصلة الّتي هي أحسن من كلّ خصلة فإنها دفع السّيّئة بالحســـنة. إنّ الإساءة — مثلاً — تُدْفع بالإحسان، والجهل بالحلم، والغضب بالصّبر، والمنع بالمـــنح، والظّلم بالعفو، والقطع بالوصل، وهكذا. إنّ الثّمرة اليانعة لدفع السّيّئة بالحسنة، بل بالخصـــلة الّتي هي أحسن أنّ الشّخص الّذي بينك وبينه عداوةٌ، وليس وراء العداوة في حقّ السّـــيّئة وراء، يـــتحوّل كأنّه صديقٌ وفيٌّ لصديقه، وغايةٌ في الاهتمام لما يسرّ صديقه، الهمّ والغمّ لما يسوء صديقه، وليس وراء الوليّ الحميم في حقّ الحسنة والصّداقة وراء.

وإمّـــا يهيجنّك على الشّرور أيّها المؤمن مهيجٌ من الشيطان الرّجيم، ويزعجنك على الآثام مزعجٌ من النفس الأمّارة بالسّوء، كي تبادل السّيّئة بالسّيّئة فاستعذ بالله تعالى السّـــميع لكلّ قول، العليم بكلّ نيّة وعمل، من الشّيطان الرّجيم، المطرود من رحمة الله تعالى. " إنّ شيطان الإنس ربّما ينخدع بالإحسان إليه. فأمّا شيطان الجنّ فإنّه لا حيله فـــيه إذا وسوس إلاّ الاستعاذة بخالقه الّذي سلّطه عليه، فإذا استعذت بالله ولجأت إليه كفّه عنك وردّ كيده"[1] .

(٦)

" المشركون يصرّون على تكذيب آيات الله تعالى البيّنات الحسّيّة والمعنويّة وعقابهم وثواب المؤمنين "

الآيات (٣٧ - ٤٦)

أصـــرّ كفّار مكّة على تكذيب المصطفى ﷺ وإنّ رحمة الله تعالى الواسعة تظلّ تلاحقهـــم، فهـــا هي ذي السّورة الكريمة تتحوّل إلى الحديث في بعض آيات الله تعالى المحسوســـة الدّالـــة عـــلى قدرة الله تعالى المطلقة كي يفرد المشركون الله تعالى بالعبادة ويؤمـــنوا بالبعـــث ويعملـــوا الصّالحات مهتدين بالقرآن الكريم، معجزة المصطفى ﷺ الكبرى الّتي تبيّنها سنّته عليه الصّلاة والسلام وفي هذا القسم من السّورة الكريمة تسليةٌ للمصطفى ﷺ وتثبيتٌ لفؤاده عليه الصّلاة والسّلام.

إنّ مـــن آيات الله تعالى الدّالّة على قدرته المطلقة عزّ وجلّ اللّيل بظلامه، ولأنّ الظّلمة هي الأصل تتقدّم الإشارة إلى اللّيل، والنّهار المبصر، والشّمس بضيائها، والقمر

---

[1] تفسير ابن كثير ٧ / ١٧٠ .

بـــنوره. وينهي السّياق عن السجود للشمس والقمر أجمل نجم وكوكب وأكثرها نفعاً لـــنا، ومـــن باب الأحرى ما يقلّ عنهما جمالاً ونفعاً، ويأمر بالسّجود لله تعالى الّذي خلقهمـــا إن كنّا نعبد الله تعالى حقاً ونوحّده صدقاً. ومعروفٌ أنّ السّجود أبلغ الأدلّة الظاهـــرة تعـــبيراً عن العبادة، وأنّ العبد أقرب ما يكون من ربّه عزّ وجلّ وهو ساجد، ولهـــذا كـــان الأمر بالسّجود لله تعالى وحده دون سواه أي الأمر بتوحيده عزّ وجلّ وإفراده بالعبادة. وإنّ المشركين إن استكبروا عن السجود لله تعالى وإفراده بالعبادة فإنّ الملائكة الأطهار الّذين عند ربّك يا محمّد يتزّهون الله سبحانه وتعالى باللّيل والنّهار وكلّ الأوقـــات من كلّ ما ألحقه الظّالمون به جلّ وعلا ممّا لا يليق بعظمته عزّ وجلّ، وهم لا يسأمون ويملّون عن التّسبيح بحمد الله تعالى ولا يفْتُرون ويتعبون.

ومن آيات الله تعالى الدّالّة على القدرة المطلقة للذّات العليّة ومنها البعث أنّك يا محمّد ويا أيّها الإنسان ترى الأرض خاشعة ميّتةً فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وتحرّكت بالنّـــبات وربت ونمت. إنّ الّذي أحيا الأرض الميتة لمحيي الموتى يوم القيامة فآمنوا أيها الكافرون بالبعث. إنّ الله تعالى على كل شيءٍ قدير.

وأصـــرّ المشركون على الإلحاد في آيات الله تعالى والميل بها عن معناها الصّحيح تكذيـــباً بها وجحوداً لها. وهؤلاء الّذين يميلون بآيات الله تعالى عن معناها الصّحيح لا يخفون على الله تعالى وسيعاقبهم إن لم يتوبوا وينيبوا. وفي مقابل هؤلاء هنالك المؤمنون المـــتّقون. وبطبـــيعة الحال لا يستوي حال المشركين الملحدين الّذين يُلْقى بهم في النّار، وحـــال المؤمنين الآمنين الّذين يدخلون جنّات النّعيم. وعلى سبيل التّهديد للمشركين يقـــال لهم اعملوا ما شئتم إنّ الله تعالى بما تعملون بصيرٌ وسيعاقبكم. وإنّ الّذين كفروا بالقرآن الكريم لا يخفون على الله تعالى وسيعذّبهم.

ولا يكـــاد العجب ينتهي من مشركي مكة ومشركي العرب، وهم أئمة البيان وفرسان البلاغة، حينما يصرون على الإعراض عن القرآن الكريم الّذي سحرهم ببيانه، وفتـــنهم ببلاغته، ولكنّه عمى البصيرة والعياذ بالله. إنّ هذا القرآن الكريم لكتابٌ عزيزٌ بإعـــزاز الله تعـــالى له ولكلّ من اتّصل منه بسبب، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فلا يستطيع شيءٌ قبله ولا بعده إلاّ أن يكون تحت هيمنته وسيطرته، ولأنّ الحقّ جـــلّ وعـــلا هو الّذي تكفّل بحفظه إلى يوم الدّين، لا يمكن بحالٍ من الأحوال حذفُ حـــرفٍ واحـــدٍ منه أو إضافةُ حرفٍ واحدٍ إليه. إنّه تنزيل من الله تعالى الحكيم في كل شيء، المحمود في كلّ الأحوال .

وأنت أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم لست أوّل من كذّبه قومه. ما يقال لك يا محمّد إلاّ ما قد قيل للرّسل من قبلك فاصبر كما صبروا. وإنّ ربّك يا محمّد لذو مغفرةٍ لمن آمن وتاب وأناب، وذو عقابٍ أليم لمن كفر واستكبر عن توحيد الله تعالى. ونحن لو جعلنا هذا الكتاب العزيز قرآناً أعجميّاً لقالوا هلاّ بيّنت آياته وكان بلسانٍ عربّي مبين. أقـــرآنٌ أعجميّ ونبيّ عربيّ! قل يا محمد لهؤلاء الذين لا تنقصهم الحجّة ولكلّ إنسان : هـــذا القـــرآن الكريم هدىً للّذين آمنوا من الضّلالة وشفاء لأدوائهم المعنويّة والحسّيّة جمـــيعاً. والّذين لا يؤمنون بالله تعالى والرّسول الكريم ودين الإسلام العظيم، في آذانهم صـــممٌ عـــن سماع القرآن الكريم سماع تدبّر، وهو عليهم عمىً بسبب عمى بصائرهم وقلوبهم الّتي في صدورهم. إنّهم بمثابة الّذين ينادوْن من مكانٍ بعيدٍ فلا يسمعون ما يقال لهم ولا يفهمونه.

وكما آتيناك يا محمّد الكتاب الّذي اختلف فيه قومك بين مصدقٍ ومكذبٍ؛ آتينا موسى عليه السّلام الكتاب الّذي اختلف فيه قومه كذلك، وهو التّوراة. فاصبر يا محمّد كما صبر موسى، وهو أحد أولي العزم من الرّسل، وأنت زعيمهم. ولولا كلمةٌ سبقت

من ربّك يا محمّد بتأخير العذاب حتّى يوم القيامة وحتّى تنقضي آجالهم لقَضي بينهم في الحياة الدّنيا ولنزل بهم العذاب وحلّ عليهم النّكال. وإنّهم لفي شكٍّ من هذا الكتاب العزيز، ولا يزدادون بذلك الشّكّ إلاّ المزيد من الارتياب والاضطراب.

إنّ من آمن وعمل صالحاً فلنفسه ثواب عمله. ومن كفر وعمل سيّئاً فعلى نفسه وزر عمله. وما ربّك يا محمّد ويا أيّها المؤمن ويا أيّها الإنسان بظلاّم للعبيد بحذف حسنةٍ أو إضافة سيّئة .

التفسير

(١)

" كفّار مكّة يعرضون عن القرآن الكريم والنّبيّ العظيم،

ولا يؤمنون بالبعث فويلٌ لهم " .

الآيات (١ - ٨) .

﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ ﴾

كتابٌ فصّلت آياته : كتابٌ بيّنت آياته[1] .

لقوم يعلمون : اللسان العربيّ[2] .

تبدأ السّورة الكريمة بالحرفين المقطّعين ﴿ حمٓ ۝١ ﴾ اللّذين ابتدأت بهما سورة غافر الكريمة، أولى سور آل حم السّبع الكريمات. وما قيل عن الحرفين هنالك يقال هنا. ويأتي الانتصار للقرآن الكريم على الفور. إنّ هذا القرآن الكريم تنزيلٌ من الرّحمن الّذي وسعت رحمته كلّ شيء وحيّ، رحمن الدّنيا والآخرة، الرّحيم بالمؤمنين رحمةً خاصةً بهم. وهذا القرآن الكريم كتابٌ فُصِّلت آياته الكريمات، وبيّنت معانيه، وحدّدت مراميه، واتّضحت أحكامه، وتجلّت حكمه. أنزله الحقّ جلّ وعلا أوحاه قرآناً عربياً، بلسانٍ عربّي مبين، لقومٍ يعلمون اللّسان العربيّ، ويدركون معاني الكلام، ويبلغون مراميه. أنزله الحقّ جلّ وعلا وأوحاه مبشّراً المؤمنين به المهتدين بجنّات النّعيم، منذراً الكافرين به المعرضين بنار الجحيم.

لقد أعرض عن هذا الكتاب العزيز أكثر قومك أيّها الرّسول الكريم، والنّبيّ العظيم، فهم لا يسمعون هذا القرآن الكريم سماع تدبّر، وكأنّهم ينادَوْن من مكانٍ بعيد، فهم لا يكادون يسمعون الصّوت، وكأنّهم قد اخترمهم الموت.

---

[1] تفسير الطّبري ٢٤ / ٥٩ .

[2] تفسير الطّبري ٢٤ / ٥٩.

﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾

وقـــالوا قلوبنا في أكنّة : أكنّة جمع كِنان وهو الغِطاء الّذي يُكَنّ فيه الشيء، نحو غطـــاء وأغطـــية[1] والمعـــنى قلوبـــنا في أغطيةٍ ممّا تدعونا يا محمّد إليه من توحيد الله وتصديقك فيما جئتنا به لا نفقه ما تقول[2] .

وفي آذاننا وقر : أي ثقل، لا نسمع ما تدعونا إليه استثقالاً لما يدعو إليه وكراهةً له[3] وصمم[4] .

ومن بيننا وبينك حجاب : ومن بيننا وبينك يا محمّد ساتر لا نجتمع من أجله نحن وأنت فيرى بعضنا بعضا. وذلك الحجاب هو اختلافهم في الدّين، لأنّ دينهم كان عبادة الأوثان، ودين محمّدٍ ﷺ عبادة الله وحده لا شريك له[5] .

فاعمل إنّنا عاملون : فاعمل على دينك إنّنا عاملون على ديننا[6]

وقال مشركو مكّة للنّبيّ ﷺ قلوبنا في أغطيةٍ ممّا تدعونا إليه، فلا يستطيع القرآن أن يصـــل إلى قلوبنا فضلاً عن أن يتغلغل فيها ويستقرّ. وفي آذاننا صممٌ فلا تستطيع أن تسمع القرآن سماع قبولٍ بل هي تمّجه. وحينما تتعطّل وسيلة السّمع ، وهي أهمّ الحواسّ

---

(1) مفردات الرّاغب الأصفهاني : "كن " ٢ / ٥٦٩ .

(2) تفسير الطّبري ٢٤ / ٥٩ .

(3) تفسير الطّبري ٢٤ / ٥٩ .

(4) تفسير الطّبري ٢٤ / ٥٩ .

(5) تفسير الطّبري ٢٤ / ٥٩ .

(6) الجلالين ومعاني القرآن للفرّاء ٣ / ١٢ .

الخمس لتلقّي الأصوات المسموعة بل العلم، فذلك معناه الانقطاع الكامل عن المستقّر، وهو القلب. وبذلك يكون تعطيل حاسّة السّمع تأكيداً لظلام القلب وغفلته.

ويتأكدّ ظلام القلب وضلاله بالقول : ﴿ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ ﴾ والحجاب هنا معنويّ، وهو اختلاف الدّين. وفي مجال المعنويّات الحجاب هو السّاتر لنور البصيرة المانع له من التّسلل إلى القلب والاستقرار فيه. وفي مجال المحسوسات الحجاب هو السّاتر لنور البصر المانع له من التسلسل إلى العين والاستقرار فيها. وبذلك يكون ثمّة تحوّل من حاسّة السّمع الصّمّاء، إلى حاسّة البصر العمياء. والمعروف أنّ حاستي السّمع والبصر أهمّ الحواسّ الخمس في مثل هذه الحال للحصول على العلم. والمعروف أنّ حاسّة السّمع أهمّ الحاسّتين. وقد نبّهت الآية الكريمة على هذه الأهميّة بتقديم ما يتعلّق بحاسّة السّمع على ما يتعلّق بحاسّة البصر.

وبعد أن عبّر المشركون بصريح اللّفظ عن فساد المستقر، وهو القلب، وفساد حاسّتي الإيصال، وهي السّمع والبصر، عبّروا بصريح اللّفظ عن مشاقّة الرّسول ﷺ وأخذهم غير الشقّ الّذي يأخذه عليه الصلاة والسلام وغير الطّريق الّذي يسلكه : ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ ﴾ والمعنى، فاعمل على دينك وطريقتك إنّا عاملون على ديننا المخالف لدينك، والطّريق المعاكس لطريقك.

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ﴾

قل إنّما أنا بشرٌ مثلكم : قل يا محمّد ما أنا إلاّ بشرٌ من بني آدم مثلكم في الجنس والصّورة والهيئة لست بملك[1] .

فاستقيموا إليه : بالطّاعة ووجّهوا إليه وجوهكم بالرّغبة والعبادة دون الآلهة والأوثان[2]، إليه جارٌ ومجرور متعلّقان با ﴿ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ ﴾ بتضمينه معنى توجهّوا[3] .

وويلٌ للمشركين : هلاكٌ ومشقّةٌ من العذاب وحزن .

والويل : كلمةٌ تقال لكلّ من وقع في عذابٍ أو هَلَكة . وأصل الويل في اللّغة العذاب والهلاك. والويل : الهلاك يُدْعَى به لمن وقع في هَلَكة يستحقّها[4] .

الّذين لا يؤتون الزّكاة : الّذين لا يؤدون زكاة أموالهم[5] والمعروف أنّ إيجاب الزّكاة إنّما كان في السّنة الثانية من الهجرة إلى المدينة، وهذه الآية الكريمة مكّيّة. ولا يبعد أن يكون أصل الزّكاة وهو الصّدقة قد كان مأموراً به في ابتداء البعثة، كقوله تعالى:[6] (وآتوا حقّه يوم حصاده) فأما الزّكاة ذات النُّصُب والمقادير، فإنما بيّن

---

(1) تفسير الطّبري ٢٤ / ٦٠ .

(2) تفسير الطّبري ٢٤ / ٦٠ .

(3) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١ / ١٣٧ .

(4) انظر لسان العرب : " ويل " .

(5) تفسير الطّبري ٢٤ / ٦٠ .

(6) سورة الأنعام ١٤١ .

أمـــرها بالمديـــنة. كما أنّ أصل الصّلاة كان واجباً قبل طلوع الشمس وقبل غروبها في ابـــتداء البعثة. فلمّا كان ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنةٍ ونصف، فرض الله على رسوله الصّلوات الخمس، وفصّل شروطها وأركانها وما يتعلق بها بعد ذلك، شيئاً فشيئاً. والله أعلم[1] .

غير ممنون : غير مقطوعٍ [2] ولا منقوص[3] .

قـــل يا محمّد لمشركي قومك المصرّين على الصّدود عنك : إنما أنا بشرٌ مثلكم جنساً وهيئةً وصورة، يوحَى إليّ أنّما إلهكم إله واحدٌ لا شريك له، فانصرفوا عن عبادة الآلهـــة المزعومة، وتوجّهوا إلى الله تعالى، واقصدوه وحده دون سواه، واسألوه المغفرة لذنوبكـــم وتوبـــوا إليه، وأقلعوا عن الشّرك وآمنوا واعملوا الصّالحات. عذابٌ شديد وهلاكٌ أكيدٌ للمشركين الّذين لا يتصدّقون فلا يدفعون زكاة أموالهم لأنّهم غير مؤمنين ولم يعتـــنقوا ديـــن الإســـلام، وهم بالآخرة كافرون، وليوم القيامة منكرون، وللبعث والحساب والجزاء جاحدون.

إنّ الّذيـــن آمنوا بقلوبهم وعملوا الصّالحات بجوارحهم، لهم عند ربّهم عزّ وجلّ أجرٌ غير مقطوع، وثوابٌ غير منقوص.

---

[1] انظر تفسير ابن كثير ٧ / ١٥٣ .

[2] تفسير ابن كثير ٧ / ١٥٣ والجلالين.

[3] تفسير الطّبري ٢٤ / ٦١ .

(٢)

" خلق الله تعالى السّماوات والأرض في ستّة أيّامٍ فوحّدوه "

الآيات (٩ ـ ١٢)

﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾

قل أئنكم لتكفرون بالّذي خلق الأرض في يومين : الهمزة للاستفهام الإنكاريّ[1] وتجعلون له أنداداً : أكفاء[2] وشركاء[3] ونظراء وأمثالاً تعبدونها معه[4] .

وجعل فيها رواسي من فوقها : وجعل في الأرض الّتي خلق في يومين جبالاً رواسي وهي الثوابت من فوق الأرض على ظهرها[5] .

وبارك فيها : فجعلها دائمة الخير لأهلها[6] بكثرة المياه والزّروع والضّروع[7] .

وقدّر فيها أقواتها : وقدّر فيها أرزاق العباد[8] وما يقوتهم من المياه والزّروع والضّروع[9] .

---

(1) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١ / ٢٣٨ .

(2) تفسير الطّبري ٢٤ / ٦١ .

(3) الجلالين .

(4) تفسير ابن كثير ٧ / ١٥٤ .

(5) تفسير الطّبري ٢٤ / ٦٢ .

(6) تفسير الطّبري ٢٤ / ٦٢ .

(7) الجلالين .

(8) تفسير الطّبري ٢٤ / ٦٢ .

(9) الجلالين .

في أربعة أيّام : في تمام أربعة أيّام[1] فهما مع اليومين السّابقين أربعة[2] .

سواءً للسّائلين : سواءً : مفعولٌ مطلق لفعل محذوف[3] يقول السّدّى : من سأل فهكـــذا الأمر[4] وكما أخبر الله تعالى، أربعة أيّام لا يزدن على ذلك ولا ينقصن منه[5] وهذا رأي ابن عبّاس وقتادة[6] .

ثمّ استوى إلى السّماء : ثمّ ارتفع إلى السّماء[7] وقصد[8] .

وهي دخان : هو بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض[9] .

قالـــتا أتينا طائعين : جئنا بما أحدثت فينا من خلقك مستجيبين لأمرك لا نعصي أمـــرك[10] وقد كان بعض أهل العربيّة يقول : ذهب به إلى السّماوات والأرض ومن فيهنّ [11].

فقضاهنّ : فصيّرهنّ[12] وفرغ من خلقهنّ[13] .

في يومين : آخرين[14] .

---

[1] الجلالين .

[2] تفسير ابن كثير ٧ / ١٥٥ ومعاني القرآن للأخفش ٢ / ٤٦٤ .

[3] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١ / ٢٣٩ .

[4] تفسير الطّبري ٢٤ / ٦٣ وانظر معاني القرآن للفرّاء ٣ / ١٣ .

[5] تفسير الطّبري ٢٤ / ٦٣ .

[6] انظر تفسير ابن كثير ٧ / ١٥٥ وتفسير الطّبري ٢٤ / ٦٣ .

[7] تفسير الطّبري ٢٤ / ٦٤ .

[8] الجلالين .

[9] تفسير ابن كثير ٧ / ١٥٦ .

[10] تفسير الطّبري ٢٤ / ٦٤ .

[11] تفسير الطّبري ٢٤ / ٦٤ ومعاني القرآن للفرّاء ٣ / ١٣ .

[12] الجلالين .

[13] تفسير الطّبري ٢٤ / ٦٤ .

[14] تفسير ابن كثير ٧ / ١٥٦ .

وأوحى في كل سماءٍ أمرها : وألقى في كلّ سماءٍ من السّماوات السّبع ما أراد من الخلق[1] ورتّب مقرّراً في كلّ سماءٍ ما تحتاج إليه من الملائكة وما فيها من الأشياء الّتي لا يعلمها إلاّ هو[2] .

وزيّنّا السّماء الدّنيا بمصابيح وحفظاً : وزيّنّا السّماء الدّنيا إليكم أيّها النّاس بالكواكب وهي المصابيح[3] والنّجوم [4] وهن الكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض[5] وحفظناها حفظاً[6] من استراق الشياطين السّمع بالشّهب[7] .

ذلك تقدير العزيز العليم : هذا الّذي وصفت لكم من خلقي السّماء والأرض وما فيها وتزييني السّماء الدّنيا بزينة الكواكب على ما بيّنت، تقدير العزيز في نقمته من أعدائه، العليم بسرائر عباده وعلانيتهم وتدبيرهم على ما فيه صلاحهم[8] .

قل يا محمّد لمشركي قومك منكراً عليهم ومتعجّباً من فرط غبائهم وعنادهم : أئنكّم لتكفرون بوحدانية الله تعالى الّذي خلق الأرض من غير دحو في يومين اثنين لا يعلمهما على حقيقتهما إلاّ هو عزّ وجل وتجعلون له شركاء في العبادة وأنداداً ! إن الّذي فعل ذلك هو الله تعالى ربّكم وربّ كلّ شيءٍ وحيّ ربّ العالمين .

والله تعالى جعل في الأرض جبالاً راسخةً وراسيةً من فوق الأرض كيلا تضطرب الأرض وتميد. وبارك في الأرض وهيّأها كي تكون دائمة الخير لأهلها من الناس

---

(1) تفسير الطّبري ٢٤ / ٦٤ .

(2) تفسير ابن كثير ٧ / ١٥٦ .

(3) تفسير الطّبري ٢٤ / ٦٤ .

(4) الجلالين .

(5) تفسير ابن كثير ٧ / ١٥٦ .

(6) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١ / ٢٤٠ وتفسير الطّبري ٢٤ / ٦٤ .

(7) الجلالين .

(8) تفسير الطّبري ٢٤ / ٦٥ .

والحيوان والنّبات وسائر الخلق وذلك بكثرة الماء في المقام الأوّل. وقد جعل عزّ وجلّ من المـــاء كلّ شيءٍ حيٍّ . وقدّر جلّ وعلا في الأرض أقواتها، وضمن لكلّ ما يدبّ عليها ويطير ويسبح رزقه، في توازنٍ لطيف، وتكافلٍ عجيب. لقد تمّ تهيئة الأرض كي تكون صـــالحة للسُّـــكنى في يومين آخرين. وبذلك احتاجت الأرض وحدها أربعة أيّام، ومن الأيّام السّتّة الّتي خلق الله تعالى فيها السّماوات والأرض.

وقد تمّ التعبير عن الأيّام الأربعة بالقول : ﴿ فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ والمعنى في تمام أربعة ايّام بالتّمام والكمال، لا تزيد ولا تنقص، يعرف هذه الحقيقة كلّ من سأل وأراد أن يعرف عدد الأيّام الّتي احتاجتها الأرض خلقاً وتهيئة للسُّكنى.

والحقيقة أنّنا أمام بلاغةٍ بالحذف في القول : ﴿ فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ ﴾ مِنْ أهمّ مواطن الـــبلاغة بـــالحذف في القرآن الكريم. وإنّما قلنا إنّ هذا الموطن من أهمّ مواطن البلاغة بـــالحذف في القـــرآن الكريم لأنّ من لم يفطن لهذا النّوع من بلاغة القرآن الكريم ربّما أضاف الأربعة الأيّام إلى اليومين السّابقين واليومين اللاّحقين للسّماوات فكانت الحصيلة ثمانية أيام. وربّما تحمّس الغيورون للدّفاع والتّوفيق وليس الأمر بحاجةٍ إلى شيٍ من ذلك لأنّ ثمّة بلاغةً بالحذف نصّ عليها كلّ العلماء.

ومـــن العلماء الّذين تحمّسوا للتّوفيق والدّفاع موريس بوكاي في مؤلّفه العظيم الّـــذي أنصـــف القرآن الكريم أيّما إنصاف : القرآن الكريم والتّوراة والإنجيل والعلم. وذلـــك في الفصـــل بعنوان : مراحل الخلق السّـــتّة [1] إنّ المؤلفّ الفاضل بسبب عدم فطنـــته للـــبلاغة بالحذف في الآية الكريمة اجتهد باخلاص لمعرفة المراد بالأيام الثّمانية والتّوفيق بين الثّمانية والسّـــتّة[2] .

---

[1] القرآن الكريم والتّوراة والإنجيل والعلم ١٥٨ – ١٦١ دار المعارف ١٩٧٩م .

[2] القرآن الكريم والتّوراة والإنجيل والعلم ١٥٨ – ١٦١.

وإنّ هذه مناسبة طيّبة كي أكرّر ما سبق أن نبّهت عليه بأنّ أمثال هذه المؤلفات المنصفة لدين الإسلام تحتاج إلى جهةٍ رسميّةٍ ذات كفاءةٍ عاليةٍ كرابطة العالم الإسلامي، ووزارة الشّـــئون الإســـلامية والأوقاف والدّعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية، والأزهر الشّريف، كي تقوم بمراجعة تلك المؤلفات والتّرجمات، وتقوم بما ينبغي القيام به من تصويبٍ وتعديلٍ وتوجيهٍ وإتمام. والله تعالى هو الموّفق والهادي إلى سواء السّبيل.

وبعـــد أن خلق الله تعالى الأرض استوى استواءً يليق بجلاله وعظمته وارتفع إلى السّماء وهي دخانٌ فقال لها عزّ وجلّ وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً وكونا تحت مشيئتي راضيتين أو مكرهتين، قالتا بلسان المقال، فلا يعجز الله تعالى شيءٌ ، أو بلسان الحال : أتيـــنا بمـــن فينا من خلقك، من يعقل وما لا يعقل ، طائعين خاضعين ولمشيئتك يا ربّنا مستسلمين، ولإرادتك صاغرين.

فقضى الحقّ جلّ وعلا السّماوات وجعلهن سبع سماوات في يومين اثنين آخرين تمام الأيّام السّتّة ، وأوحى جلّ وعلا في كلّ سماءٍ أمرها، وألهم كلّ سماءٍ ومن فيها وما فيها شأنها والدّور المنوط به كي تقوم به، فقد سخّر الله تعالى كلاًّ لما خُلِق له.

وزيّـــن عزّ وجلّ السّماء الدّنيا والقريبة من الأرض بمصابيح مضيئة، وكواكب منيرة، وحفظها بالشّهب حفظاً، كيلا تسترق الشّياطين السّمع، والقدْر من الغيب الّذي شاء الله تعالى للملائكة أن تعلمه بإذنه، والّذي تتحدّث به فيما بينها بإذنه.

إنّ كلّ هذا الكون العجيب الخلق، العظيم الدّقّة، تقدير الله تعالى، العزيز في ملكه خلقاً وتقديراً وتدبيراً، العليم الّذي لا يغيب عنه مثقال ذرّة في السّماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلاّ وهو مكتوبٌ في كتابٍ مبين هو اللّوح المحفوظ.

وقد جمعت سورة فصّلت الكريمة بين عمليتي الخلق والتّهيئة للسُّكنى وقرنت بينهما في نسق. وقد نصّت سورة النّازعات الكريمة على أن عمليّة التّهيئة للأرض تمت بعد عمليّة خلق السّماوات، وسكتت عن عملية خلق الأرض الّتي نصت عليها سورة

فصّلت الكريمة وعلى عمليّة التّهيئة. وإنه بالجمع بين الآيات الكريمات في السّورتين الكريمتين يتّضح ما قاله ابن عبّاس رضي الله تعالى عنهما في معنى الآيات الكريمات. جاء عنه رضي الله تعالى عنه أنّ الله تعالى : " خلق الأرض بأقواتها من غير أن يدحوها قبل السّماء. ثمّ دحا الأرض بعد ذلك فذلك قوله : ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ ﴾ [1] وهذه هي الآيات الكريمات من سورة النّازعات . قال تعالى[2] : ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾.

ومعنى الآيات الكريمات، والله تعالى أعلم، أأنتم يا كفّار مكّة يا منكري البعث، أشدّ خلقاً أم السّماء! ومعروفٌ أنّ خلق السّماوات والأرض أكبر من خلق النّاس بنصّ القرآن الكريم[3] لقد بنى الله تعالى السّماء فأحكم بناءها. رفع سمكها، فالناظر إليها من أسفل إلى أعلى لا يرى في خلق الرّحمن من تفاوت، فسوّاها وجعلها الغاية في الاستواء. وأظلم الله تعالى ليل السّماء وأظهر نهارها بضوء الشّمس. والأرض الّتي خلقها الله تعالى قبل السّماء بسطها الله تعالى بعد خلق السّماء وهيّأها لعمليّة الإسكان عليها. أخرج عزّ وجلّ منها ماءها الّذي جعل تعالى منه كلّ شيءٍ حيّ، وما ترعاه الماشية في المقام الأوّل من عشبٍ وشجر ويعود نفعه إلى الإنسان أخيراً. والله تعالى أرسى في الأرض الجبال، وجعل الماء متاعاً للإنسان في المقام الأوّل، وجعل المرعى متاعاً للأنعام في المقام الأوّل[4].

---

[1] تفسير الطّبري ٣٠ / ٢٩ .

[2] سورة النّازعات ٢٧ – ٣٣ .

[3] سورة غافر ٥٧ .

[4] درسنا الآيات الكريمات بإسهاب في كتابنا : تأملات في سورة النّازعات تحت عنوان : السّماء أشدّ خلقاً ٦٩ – ٨٣ مكّة المكرّمة ، الطبعة الثّالثة ١٤١٢هـ.

(٣)

" صاعقةٌ أَخَذَت عاداً وثمود "

الآيات (١٣ - ١٨)

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

إذ جاءتهم الرّسل من بين أيديهم ومن خلفهم : أي مقبلين عليهم ومدبرين عنهم[1] ويتبع بعضهم بعضاً متوالين[2] .

فإن أعرض كفّار مكّة عن كلّ هذه الآيات البيّنات الدّالاّت على القدرة المطلقة للذّات العليّة، ومنها البعث والحساب والجزاء يوم القيامة، فقل يا محمّد لهم : أنذرتكم صاعقة تهلككم مثل صاعقة عادٍ وثمود قومي هودٍ وصالحٍ عليهما السّلام، إذ جاءتهم رسل الله تعالى إليهم ، يتبع بعضهم بعضاً متوالين، ينهونهم عن عبادة غير الله تعالى. رفضت عادٌ وثمود دعوة رسل الله تعالى إليها، وأنكروا أن يكون رسل الله تعالى إلى الناس من البشر، وقالوا لو شاء الله تعالى أن يرسل رسلاً لأنزل ملائكة من السماء إلى أهل الأرض من أجل هذه الغاية. وقالت عادٌ وثمود بصريح اللفظ لرسل الله تعالى : إنّا بما أرسلتم به من دعوةٍ إلى توحيد الله تعالى والإيمان بالبعث لكافرون ومنكرون.

---

[1] الجلالين .

[2] التفسر الميسّر ٤٧٨ .

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً : شديدة[1] باردة[2] ذات صوت[3] .

نحسات : مشئومات على القوم [4] نكدات[5] .

فأمّا عادٌ قوم هودٍ عليه السّلام في جنوبيّ الجزيرة العربيّة فإنهم استكبروا في الأرض بغير الحقّ وتجبّروا على عباد الله تعالى، وزين لهم الشيطان الرّجيم والنّفس الأمّارة بالسّوء أعمالهم السيّئة وقالوا لا أحد أشدّ منا قوّة. أَعمُوا ولم يروا بعين البصر والبصيرة أن الله تعالى الّذي خلقهم هو أشدّ منهم قوّة وأنّهم لا يعجزونه عزّ وجلّ إن أرادهم بسوء. وكانوا بآيات الله تعالى البيّنات يجحدون، ولها ينكرون.

فأرسل الله تعالى عليهم ريحاً ملتئمةً شديدةً باردةً مزمجرة في ثمانية أيّامٍ نحسات، وسبع ليالٍ مشائيم عليهم، ليذيقهم الله تعالى في الحياة الدّنيا عذاب الخزي والهوان، ولعذاب الآخرة في نار جهنم أخزى وأشدّ إهانة. وهم لا يُنْصرون بصرف العذاب عنهم أو تخفيفه.

---

(١) تفسير الطّبري ٢٤ / ٦٥ .

(٢) تفسير الطّبري ٢٤ / ٦٦ .

(٣) تفسير الطّبري ٢٤ / ٦٦ .

(٤) تفسير الطّبري ٢٤ / ٦٦ .

(٥) تفسير الطّبري ٢٤ / ٦٦ .

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

فهديناهم : فبيّنّا لهم سبيل الحقّ وطريق الرّشد[1] .

فاستحبوا : فاختاروا[2] .

الهون : المذلّ المهين[3] .

وأمّا ثمود قوم صالحٍ عليه السلام في شماليّ الجزيرة العربيّة فإنّ الله سبحانه وتعالى أرشدهم إلى طريق الهدى بإرسال الله تعالى صالحاً عليه السلام إليهم وتحقيق آية النّاقة الّتي اقترحوا فاستحبوا العمى على الهدى، واختاروا الكفر على الإيمان، فأخذتهم صاعقة العذاب المهين لهم، بسبب ما كانوا يأتون من شرور، ويرتكبون من آثام.

ونجّى الله تعالى صالحاً عليه السلام من ذلك العذاب كما نجّى الّذين آمنوا بالله تعالى وصدّقوا صالحاً عليه السلام وكانوا يتّقون الله تعالى بفعل الطّاعات واجتناب المعصيات.

---

[1] تفسير الطّبري ٢٤ / ٦٦ .

[2] تفسير الطّبري ٢٤ / ٦٧ .

[3] تفسير الطّبري ٢٤ / ٦٨ .

(٤)

" أعداء الله تعالى من شياطين الإنس والجنّ حق عليهم القول بدخول جهنّم "

الآيات (١٩ - ٢٩)

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

ويوم يحشر أعداء الله : واذكر لهؤلاء المشركين يوم يُحْشرون إلى النّار[1] .

فهم يوزعون : فهم يحبس أوّلهم على آخرهم[2] وتجمع الزّبانية أوّلهم على آخرهم[3].

وجلودهم : قيل عنى بالجلود في هذا الموضع الفروج[4] .

وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم : وما كنتم تستخفون فتتركوا ركوب محارم الله في الدّنيا حذراً أن يشهد عليكم سمعكم وأبصاركم اليوم[5] .

---

[1] تفسير ابن كثير ٧ / ١٥٩ .
[2] تفسير الطّبري ٢٤ / ٦٧ .
[3] تفسير الطّبري ٢٤ / ٦٨ .
[4] تفسير الطّبري ٢٤ / ٦٨ .
[5] تفسير الطّبري ٢٤ / ٦٨ .

أرداكم : أهلككم[1] .

مثوىً لهم : مسكنٌ لهم ومترل[2] .

وإن يستعتبوا : وإن يطلبوا العُتْبى ، وهو الرّجوع عن الإساءة إلى ما يُرْضِي العاتب[3] وأن يبدوا أعذاراً [4] ويطلبوا الرّضا[5] .

فما هم من المعتبين : فما هم من المرضيّين[6] ولا تقال لهم عثرات[7] والعُتْبى : الرّجوع ممّا تكره إلى ما تحبّ[8] والعُتْبى رجوع المعتوب عليه إلى ما يُرْضى العاتب[9]

سبب النّزول

روى البخاريّ في صحيحه[10] عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : اجتمع عند البيت قرشيّان وثقفيّ، أو ثقفيان وقرشيّ، كثيرة شحم بطونهم ، قليلةٌ فقه قلوبهم، فقال أحدهم : أترَون أنّ الله يسمع ما نقول؟ قال الآخر : يسمع إن جَهَرْنا ولا يسمع إن أخفينا. قال الآخر : إن كان يسمع إذا جَهَرْنا فإنّه يسمع إذا أخفينا . فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ﴾ الآية .

---

(1) تفسير الطبري ٢٤ / ٧٠ .

(2) تفسير الطبري ٢٤ / ٧٠ .

(3) انظر لسان العرب " عتب " .

(4) تفسير ابن كثير ٧ / ١٦٢ .

(5) الجلالين .

(6) الجلالين.

(7) تفسير ابن كثير ٧ / ١٦٢ .

(8) لسان العرب : " عتب ".

(9) لسان العرب : " عتب " .

(10) فتح الباري ٨ / ٥٦٢ حديث رقم ٤٨١٧ وانظر تفسير ابن كثير ٧ / ١٦١ .

وقـــد علّـــق ابن حجر على الحديث بقوله[1] : " وفيه إشارةٌ إلى أنّ الفطنة قلّما تكون مع البِطنة " .

واذكر يا محمّد لقومك يوم القيامة الّذي يساق فيه أعداء الله تعالى إلى النار فهم يُحْـــبس أوّلهم على آخرهم، وتجمع زبانية جهنّم وخزنة النار أولهم على آخرهم . حتى إذا جاؤوا نار جهنّم وأنكروا المعاصي الّتي أتوا والذّنوب الّتي ارتكبوا شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم وفروجهم بما كانوا يعملون من سيئات.

وقـــال الكافـــرون لجلودهم على سبيل الإنكار عليها الاعتراف، والتّعجّب من الشّـــهادة عليهم وهم الّذين يدافعون عنها ويكذبون من أجلها : لِمَ شهدتم علينا ونحن الّذيـــن استمتنا في الدّفاع دونكم والذّبّ عنكم ! قالت الجلود : لقد أنطقنا الله تعالى الذي أنطق كلّ شيء . والله تعالى هو الّذي خلقكم أوّل مرّةٍ أيّها النّاس وإليه ترجعون يوم القيامة للحساب والجزاء، والثّواب في الجنّة أو العقاب في النّار.

ومـــا كنتم تستخفون فتتركوا ركوب محارم الله تعالى في الدّنيا مخافة أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم، ولكن ظننتم أنّ الله سبحانه وتعالى لا يعلم كـــثيراً ممّا كنتم تعملون من سيّئات، وترتكبون من آثام . وذلكم الظّنّ الّذي ظننتموه بـــربّكم عزّ وجلّ، وهو أنه جلّ وعلا لا يعلم كثيراً ممّا تعملون، هو الّذي أوقعكم في مهاوي الرّدى، فأصبحتم من الخاسرين بدخول جهنّم.

فـــإن يصبر أولئك المشركون على العذاب فالنّار مسكنهم ومأواهم، وإن يطلبوا مـــن الله تعالى رضاه برجوعهم عن الإساءة إلى ما يرضيه عزّ وجل من إبداء الأعذار، والإيمان وعمل الصالحات بالعودة إلى الحياة الدنيا فما هم من المرضيّ عنهم، الّذين تقال عثراتهم، ويستجاب لهم، ويُلبّى طلبهم .

---

[1] فتح الباري ٨ / ٥٦٢ .

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

وقيّضنا لهم قرناء : وهيّأنا وسبّبنا لهم قرناء من حيث لا يحتسبوه[١] والقيض : قشرة البيضة العليا اليابسة[٢] وهكذا تستولي الشياطين عليهم وتستعلي استيلاء القشر الأعلى، وهو القَيْض على البيض[٣] والقرناء جمع القرين وهو المقارن والمصاحب[٤] أي وبعثنا لهم نظراء من الشياطين فجعلناهم لهم قرناء قرّناهم بهم يزيّنون لهم قبائح أعمالهم فزيّنوا لهم ذلك[٥] .

فزيّنوا لهم ما بين أيديهم : من أمر الدّنيا واتّباع الشّهوات[٦]

وما خلفهم : من أمر الآخرة بقولهم لا بعث ولا حساب [٦] .

في أمم : في جملة أمم[٧] .

وهيّأنا لهؤلاء المشركين الّذين أرشدناهم إلى طريق الهدى فأصروا على الضّلالة، وسبّبنا لهم قرناء ونظراء من شياطين الجنّ والإنس استولوا عليهم استيلاء القشرة الصّلبة على البيضة، واستعلاء القَيْض[٨] على البيض، فزيّنوا لهم ما بين أيديهم من أعمال الدّنيا،

---

[١] لسان العرب :- " قيض " .

[٢] لسان العرب : " قيض " .

[٣] انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : " قيض " ٢ / ٥٣٦ .

[٤] المعجم الوسيط : " قرن ".

[٥] تفسير الطّبري ٢٤ / ٧١ .

[٦] انظر الجلالين وتفسير الطّبري ٢٤ / ٧١ ومعاني القرآن للفرّاء ٣ / ١٧ وتفسير ابن كثير ٧ / ١٦٢ .

[٧] الجلالين .

[٨] القيض : قشرة البيضة العليا اليابسة .

واتّباع الشّهوات، والاستباق إلى عمل كلّ قبيح فهم حريصون عليه سعداء به ، وما خلفهم من أعمال الآخرة، فلا بعث، ولا حساب ولا جزاء، ولا ثواب، ولا عقاب، ولا جنّة، ولا نار . وهكذا . وقد حقّ عليهم القول بدخول جهنّم ووجب عليهم في جملة أمم قد مضت من قبلهم شبيهين بهم من الجنّ والإنس. إنهم جميعاً كانوا خاسرين حقّاً بدخول نار جهنّم. قال تعالى[1] : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

وقال الّذين كفروا : بالله ورسوله من مشركي قريش للّذين يطيعونهم من أوليائهم من المشركين[2] .

لا تسمعوا لهذا القرآن : لا تسمعوا لقارئ هذا القرآن إذا قرأه ولا تصغوا له ولا تتّبعوا ما فيه فتعملوا به [3].

والغوا فيه : قال مجاهد : المكاء والتّصفير وتخليط من القول على رسول الله ﷺ إذا قرأ. قريشٌ تفعله[4] .

---

[1] سورة هود ١١٩ وانظر الآية ١٣ من سورة السّجدة.

[2] تفسير الطّبري ٢٤ / ٧١ .

[3] تفسير الطّبري ٢٤ / ٧١ .

[4] تفسير الطّبري ٢٤ / ٧١ .

ذلك جزاء أعداء الله : ذلك: مبتدأ ، والإشارة إلى العذاب. جزاء خبر مرفوع[1].

النّار : خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي[2] .

وقال الّذين كفروا لمن يطيعهم من أوليائهم من المشركين لا تسمعوا لهذا القرآن إذا قرأه محمّدٌ أو غيره، ولا تفهموه، ولا تعملوا به، والغَوْا فيه بباطل القول وعبثه وبالصّفير واللّغط والصّياح والإزعاج فلا يستطيع أحد أن يصغي إليه أو أن يتدبّره وبذلك نأمن أن يستهوي هذا القرآن أحداً، ولعلّنا بهذا اللّغو نغلب محمّداً والمؤمنين فلا يدخل في الإسلام أحد!.

فليذيقنّ الله تعالى الّذين كفروا عذاباً شديداً في الحياة الأولى كعذاب يوم بدر، وليجزينهم أسوأ جزاء الّذين كانوا يعملون من السّيّئات في نار جهنّم.

ذلك العذاب الشّديد في الأولى والآخرة جزاء أعداء الله تعالى الّذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله تعالى. ذلك الجزاء النّار الّتي يصلون حرّها ويخلدون فيها. إنّ لهؤلاء المشركين دار الخلود في جهنّم، جزاءً بما كانوا بآيات الله تعالى البيّنات يكفرون، وعن الصراط المستقيم ينصرفون ويَصْرِفون.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

وقال الذّين كفروا وهم يصطرخون في النّار يا ربّنا أرنا اللّذين أضلاّنا من الجنّ، وعلى رأسهم إبليس اللّعين، والإنس، وعلى رأسهم قابيل، أحد ابني آدم ، اللّذين

---

[1] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١ / ٢٥١ .

[2] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١ / ٢٥١ .

قـــرّبا قرباناً فتقبّل من أحدهما وهو هابيل و لم يتقبّل من الآخر وهو قابيل فقتل هابيل، وهـــو أوّل من سنّ القتل من بني آدم . أرنا يا ربّنا اللّذين أضلانا من الجن والإنس كي نجعـــلهما تحت أقدامنا فنطأهما ليكونا من الأسفلين في قاع الجحيم. إنّ جهنّم دركات، يسفل بعضها بعضاً، وبمقدار السّفول اشتداد العذاب.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : لا تُقْتَل نفسٌ ظُلماً إلاّ كان على ابن آدم الأوّل كفلٌ من دمها، لأنّه أوّل من سنّ القتل[1] .

---

[1] فتح الباري ٦ / ٣٦٤ حديث رقم ٣٣٣٥ وقد درسنا الآيات الكريمات من سورة المائدة ٢٧ – ٣١ في قصّة ابني آدم عليه السلام في التّفسير البسيط ٦ / ٢١٣ – ٢١٨ .

(٥)

" لا أَحَدَ أَحْسَنُ قولاً مّمَّنْ دعا إلى الله تعالى
وعمل صالحاً وقال إنّني من المسلمين "

الآيات (٣٠ - ٣٦)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

إنّ الّذين قالوا ربّنا الله : وحده لا شريك له وبرّئوا من الآلهة والأنداد[1] .

ثمّ استقاموا : على توحيد الله و لم يخلطوا توحيد الله بشرك غيره به وانتهوا إلى طاعته فيما أمر ونهى[2] .

تتنّزل عليهم الملائكة : عند نزول الموت بهم[3] .

ألاّ تخافوا ولا تحزنوا : بأن لا تخافوا ولا تحزنوا[4] لا تخافوا ما تقدمون عليه من بعد مماتكم، ولا تحزنوا على ما تخلّفونه وراءكم[5] .

نحن أولياؤكم في الحياة الدّنيا وفي الآخرة: نحن الحفظة الّذين كنّا معكم في الدّنيا ونحن أولياؤكم في الآخرة[6] أيضاً كما كنّا لكم في الدّنيا أولياء[7] .

ولكم فيها ما تدّعون : تطلبون[8] .

---

[1] تفسير الطّبري ٢٤ / ٧٣ .

[2] تفسير الطّبري ٢٤ / ٧٣ .

[3] تفسير الطّبري ٢٤ / ٧٤ .

[4] تفسير الطّبري ٢٤ / ٧٤ .

[5] تفسير الطّبري ٢٤ / ٧٤ .

[6] تفسير الطّبري ٢٤ / ٧٤ .

[7] تفسير الطّبري ٢٤ / ٧٤ .

[8] الجلالين وتفسير ابن كثير ٧ / ١٦٦ .

نـــزلاً : الـــنّزل ما يعدّ للنّازل من الزّاد[1] حال منصوبة من العائد المحذوف أي تدّعونه نزلا[2] .

إنّ الّذين قالوا بألسنتهم ربّنا الله تعالى وحده لا شريك له وشهدوا أنّه لا إله إلا الله، ثمّ اســـتقاموا على المحجّة البيضاء وترجموا إلى عملٍ شهادة التوحيد. بفعل الطّاعات واجتناب المعصيات تتنزّل عليهم ملائكة الرّحمة عند نزول الموت بهم بألاّ تخافوا ممّا أنتم مقبلون عليه من شئون الآخرة ولا تحزنوا على ما خلفتموه وراءكم من شئون الدّنيا من أهلٍ وولدٍ ومنافع وما إلى وما إلى ذلك، وأبشروا بدخول الجنّة الّتي كنتم توعدون بها في الحياة الدّنيا. نحن أولياؤكم والحفظة الّذين كنّا معكم في الحياة الدّنيا، ونحن أولياؤكم في الحياة الآخرة كذلك. ولكم في الجنّة ما تشتهيه أنفسكم من أنواع اللّذّات ، ولكم فيها كـــلّ ما تطلبون، رزقاً مهيّأً، ونزلاً معدّاً لكم من الله تعالى الغفور لمن سأل من عباده المغفرة، الرّحيم بمن تاب إليه وأناب وعمل صالحاً.

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

إنّـــه لا أحد قولاً ممّن دعا عباد الله تعالى إليه عزّ وجلّ، وعمل صالحاً، وبذلك كـــان الأسوة الحسنة لمن يدعوهم إلى الله تعالى قولاً وعملاً، وقال إنّني من المسلمين لله تعالى، المستسلمين لقضائه، الخاضعين لمشيئته، المذعنين لأمره.

---

[1] مفردات الرّاغب لأصفهاني " نزل " ٢ / ٦٣٢ .

[2] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١ / ٢٥٤ .

والآيـــة الكريمة تبيّن أهمّ الشّروط في الدّعاة إلى الله تعالى. إنّهم ابتدأوا بأنفسهم صلاح نيّة، وطيب قول، وحسن فعل، واستسلاماً لمشيئة الله تعالى. روي أنّ الحسن تلا الآية الكريمة ثم قال : هذا حبيب الله. هذا وليّ الله. هذا صفوة الله. هذا خَيْرة الله[1] هذا أحبّ الخلق إلى الله . أجاب الله في دعوته. ودعا النّاس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته. وعمل صالحاً في إجابته. وقال إنّني من المسلمين[2] .

﴿ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾

ولا تستوي الحسنة ولا السّيّئة: ولا يستوي الإيمان بالله والعمل بطاعته والشّرك به والعمل بمعصيته[3] .

ادفـــع بالّتي هي أحسن : ادفع يا محمّد بحلمك جهل من جهل عليك، وبعفوك عمّـــن أساء إليك إساءة المسيء ، وبصبرك عليهم مكروه ما تـــجد منهم ويلقاك من قِبَلهم[4].

كأنّه وليٌّ : صديق[5] .

---

[1] الخَيْرة : ما يُختار . يقال : هذه خَيْرتي .

[2] تفسير الطّبري ٢٤ / ٧٥ .

[3] تفسير الطّبري ٢٤ / ٧٥ .

[4] تفسير الطّبري ٢٤ / ٧٥ .

[5] تفسير ابن كثير ٧ / ١٦٩ .

حميم : الحميم في الأصل الماء الشديد الحرارة، والمراد به هنا القريب المشفق الّذي يحتد حمايةً لذويه فكأنّه يهتمّ ويحتّم[1] قال ابن عبّاس : أمر الله المؤمنين بالصّبر عند الغضب، والحلم والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشّيطان، وخضع لهم عدوّهم كأنّه وليٌّ حميم[2] وقال عمر : ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه[3] وما يلقّاها : وما يلقّى هذه الفعلة من دفع السّيّئة بالّتي هي أحسن[4] وما يؤتى هذه الخصلة[5] وما يقبل هذه الوصيّة ويعمل بها[6] .

إلاّ ذو حظٍ عظيم : ذو نصيبٍ وافرٍ من السّعادة في الدّنيا والأخرى[7] .

وإمّا ينزغنّك من الشّيطان نزغ : الواو عاطفة . إمّا : إن حرف شرط جازم. وما زائدة[8] ونَزَغَ بينهم ينزَغ وينزِغ نَزْغاً : أغرى وأفسد وحمل بعضهم على بعض. والنّزغ: الكلام الّذي يغري بين النّاس. ونَزْغ الشّيطان وساوسه ونخْسه في القلب بما سوّل للإنسان من المعاصي، يعني يُلْقِي في قلبه ما يفسده على أصحابه. وقال الزّجّاج : معناه إن نالك من الشيطان أدنى نزغٍ ووسوسةٍ وتحريك يصرفك عن الاحتمال، فاستعذ بالله من شره وامض على حكمك[9] .

فاستعذ بالله: فاستجر بالله واعتصم من خَطراته[10] والعَوْذ الالتجاء إلى الغير والتعلق به[11]

---

(١) انظر لسان العرب " حمم " ومفردات الرّاغب الأصفهاني : " حم " ١ / ١٧١ و ١٧٢ .

(٢) تفسير الطّبري ٢٤ / ٧٦ .

(٣) تفسير ابن كثير ٧ / ١٦٩ .

(٤) تفسير الطّبري ٢٤ / ٧٦ .

(٥) الجلالين .

(٦) تفسير ابن كثير ٧ / ١٦٩ .

(٧) تفسير ابن كثير ٧ / ١٦٩ .

(٨) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١ / ٢٥٦ .

(٩) لسان العرب : " نزغ " .

(١٠) تفسير الطّبري ٢٤ / ٧٦ والخَطرة ما يخطر في القلب. وفي الأصل : " خطواته ".

(١١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : " عوذ " ٢ / ٤٥٧ .

ولا تستوي الحسنة ولا السّيّئة من ناحية، ولا تستوي درجات الحسنة ولا تستوي دركات السّيّئة من ناحية أخرى. إنّ الحسنة نقيض السّيّئة. وإنّ الحسنة درجات إلى أعلى و السّيّئة دركاتٌ إلى أسفل. ادفع يا محمّد ويا أيها المؤمن السّيّئة بالخَصْلة الّتي هي أحسن من كلّ خصلة. ادفع الغضب بالصبر، والجهل بالحلم، والظّلم بالعفو، والمنع بالمنح، والقطع بالوصل. وهكذا . إنك إذا فعلت ذلك فوجئت بأنّ الشخص الّذي بينك وبينه عداوةٌ أو خصومة كأنّه وليٌّ حميم، وقريبٌ شفيق، وصديقٌ يهتمّ بك ويغتّم لما يسوؤك أو يؤذيك.

وما يُلقّى هذه الخصلة الّتي هي أحسن، وما يؤتى الصّفة الّتي هي أجمل إلاّ الّذين صبروا على البلاء والطاعات وعن المعاصي، وما يؤتاها إلاّ ذو حظٍ موفور من سعادتي الدّنيا والآخرة.

وإمّا يستخفنّك من الشّيطان وسوسة، ويهيجنّك على الصّفة السّيّئة نخسٌ منه، بقصد إيغار الصّدور، وإفساد القلوب، وإهاجة الإحن على الأصدقاء، وتقطيع الأواصر مع الأرحام فاستعذ بالله تعالى، والجأ إليه، واستجر به من الشيطان الرّجيم . إنّه المجازي كلّ إنسانٍ بحسب نيّته وقوله وفعله، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ.

وليس بخافٍ وجه الشبه بين الآيات الكريمات هنا وبين الآيات الكريمات من التاسعة والتّسعين بعد المائة إلى الثانية بعد المائتين في سورة الأعراف . قال تعالى : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا

يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ وجاء في سورة المؤمنون [1] قوله تعالى : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾

وقد نصّ ابن كثير رحمه الله تعالى رحمةً واسعة على أنّ هذه هي كلّ الآيات الكريمات في هذا المعنى في القرآن الكريم كلّه[2] .

وذكر لنا أنّ أبا بكرٍ رضي الله عنه شتمه رجلٌ ونبيّ الله ﷺ شاهدٌ فعفا عنه ساعة. ثمّ إنّ أبا بكرٍ جاش به الغضب فردّ عليه، فقام النّبيّ ﷺ ، فأتبعه أبو بكرٍ فقال: يارسول الله، شتمني الرّجل فعفوت وصفحت وأنت قاعد. فلمّا أخذت أنتصر قمت يا نبيّ الله. فقال نبيّ الله ﷺ : إنّه كان يردّ عنك ملكٌ من الملائكة. فلما قَرُبت تنتصر ذهب الملك وجاء الشّيطان . فو الله ما كنت لأجالس الشّيطان يا أبا بكر[3] .

---

[1] الآيات ٩٦ – ٩٨ .

[2] تفسير ابن كثير ٧ / ١٧٠ .

[3] تفسير الطّبري ٢٤ / ٧٦ .

(٦)

" المشركون يصرّون على تكذيب آيات الله تعالى البيّنات الحسّيّة والمعنويّة وعقابهم وثواب المؤمنين "

الآيات (٣٧ - ٤٦)

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

وهم لا يسأمون : وهم لا يَفْتُرون عن عبادته ولا يملّون الصّلاة له[1] .

ومن آيات الله تعالى الدّالّة على قدرته المطلقة عزّ وجلّ اللّيل بظلامه، والنّهار بضيائه، والشمس المضيئة، والقمر المنير. إنّ الله سبحانه وتعالى هو خالق اللّيل والنّهار والشمس والقمر ومسخّرها ومقدّرها. إنّ اللّيل والنّهار يخلف أحدهما الآخر بإرادة الله تعالى ويختلفان لوناً وطولاً وقصراً وحركةً وسكوناً وما إلى ذلك. وإنّ الشّمس تجعل النّهار مبصراً، يبصر فيه الخلق ويتحركون ابتغاء فضل الله تعالى. وإنّ القمر ينير السّماء ليلاً وقدّره عزّ وجلّ منازل لنعلم به في المقام الأوّل عدد السنين والحساب. إنّ اللّيل لا يستطيع أن يسبق النّهار، وإنّ الشمس لا يصحّ لها أن تدرك القمر. وكلٌّ يسير في الخطّ الّذي أراد الله تعالى له أن يسير فيه . إنّ كلّ ذلك يحدث بإرادة الله تعالى الّذي ينبغي أن يُعْبَدَ وَحْده دون سواه.

ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تقدّم اللّيل على النّهار لأنّ الظلام هو الأصل، وتقدّم الشّمس على القمر لأنّها الأكثر إيجابية، والأكبر حجماً، ولأنّ القمر يستمد نوره من ضوئها، فهو يقوم بدور المرآة ويعكس ضوء الشمس وهي نجم، ويجعله نوراً لأن القمر كوكب.

---

[1] تفسير الطّبري ٢٤ / ٧٧ .

وبما أنّ السّجود على الوجه أكبر مظاهر الأدلّة على العبادة والخضوع نهت الآية الكريمة الأولى عن السّجود للشّمس والقمر وأمرت بالسّجود لله تعالى الّذي خلق الشّمس والقمر والليل والنّهار، إن كنّا نعبد الله تعالى حقاً ونوحّده صدقاً. وإنّما كان النّصّ على الشّمس والقمر من بين العناصر الأربعة المذكورة في الآية الكريمة لأنهما العنصران البارزان بالقياس إلى غيرهما، ولأنهما يتقدّمان سواهما جمالاً وبهاءً، ظهوراً ونفعاً.

فإن استكبر كفّار مكّة عن عبادة الله تعالى وحده دون سواه وعن السّجود له، وقد استكبروا فعلاً، فالّذين عند ربّك يا محمّد ويا أيّها المؤمن من الملائكة الأطهار يسبّحون له عزّ وجلّ بالليل والنّهار، ويترهونه عن كلّ ما لا يليق به عزّ وجلّ ممّا ألحقه به الظالمون ممّا لا يتمشّى مع عظمته وعزّته، وهم لا يسأمون من التّسبيح والتنزيه والتقديس لله تعالى في كلّ الأوقات.

وهكذا تتحوّل السّورة الكريمة إلى الحديث في بعض آيات الله تعالى الدّالّة على قدرة الله تعالى المطلقة بقصد حمل كفّار مكّة في المقام الأوّل على تغيير موقفهم بهجر الشّرك واعتناق عقيدة التّوحيد ودين الإسلام لله تعالى ربّ العالمين.

وإذا كانت الآيتان الكريمتان تتعلقان بالحث على عبادة الله تعالى في الحياة الأولى، فإنّ الآية الكريمة التّالية الّتي تتحدّث عن إحياء الله تعالى الأرض الميتة بالماء تتعلقّ بالحثّ على الإيمان بالبعث وبالعمل في الحياة الأولى لما بعد الموت.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾

خاشعة : يابسة متهشّمة[1] .

اهتزّت : تحرّكت بالنّبات[2] .

وربت : انتفخت[3] .

لمحيي الموتى : لمحيي الموتى بالماء يوم القيامة بين النّفختين [4] .

ومن آيات الله تعالى الدّالّة على قدرته المطلقة جلّ وعلا، ومن ذلك إحياء الموتى يوم القيامة بالبعث والنشور من أجل الحساب والجزاء، أنّك يا محمّد ويا أيّها المؤمن بل ويا أيّها الإنسان ترى الأرض خاشعة هامدةً ميّتة، لا زرع فيها ولا نبت، فإذا أنزلنا عليها الماء من السّماء دبّت فيها الحياة، فاهتزّت بالنّبت الّذي ينمو في باطنها وتحرّكت، ثمّ ربت وانتفخت وارتفعت وخرج النّبت، ووقف على سوقه، وآتى أكله. إن الّذي أحيا الأرض الميتة فأنبتت من كلّ زوجٍ بهيج هو الله تعالى الّذي سوف يحيي الموتى يوم القيامة بين النّفختين اللّتين ينفخهما إسرافيل عليه السّلام بإذن الله تعالى. إنّ النّفخة الأولى في الصّور أو البوق تميت الخلائق بإذن الله تعالى، إلاّ من شاء ربّك من الملائكة والحور والولدان. وإنّ النّفخة الأخرى تحيي الخلائق بإذن الله تعالى. وبين النّفختين أربعون سنةً كما فهم بعض العلماء من حديث للمصطفى ﷺ. وفي هذه الفترة بين النفختين ينمو الخلائق كالنّبت بإذن الله تعالى. إنّ الّذي يفعل كلّ ذلك هو الله تعالى

---

[1] تفسير الطّبري ٢٤ / ٧٧ .

[2] تفسير الطّبري ٢٤ / ٧٧ .

[3] تفسير الطّبري ٢٤ / ٧٧ .

[4] تفسير الطّبري ٢٤ / ٧٨ .

القدير على كلّ شيء، والذّي لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء، والّذي يستحقّ أن يُعْبَدَ وحده دون سواه.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

إنّ الّذين يُلْحِدون في آياتنا لايخفون علينا : إنّ الّذين يميلون عن الحقّ في حججنا وأدلّتنا ويعدلون عنها تكذيباً بها وجحوداً لها[1] .

إنّ الّذين يلحدون في آياتنا، وفي مقدمتهم كفّار مكّة، ويميلون عن الحقّ في حججنا، وينحرفون عن الصّواب في أدلّتنا، لا يخفون علينا، بل نحن عالمون بهم، ومحيطون بأعمالهم، وسنعاقبهم عليها؛ إن لم يتوبوا توبةً نصوحاً، ويؤمنوا ويعملوا صالحاً. أفمن يُلْقَى في نار جهنّم ويصلاها بحرّ وجهه خيرٌ أمّن يأتي آمناً يوم القيامة بسبب إيمانه وعمل الصّالحات؟ إنّ الجواب معروفٌ، فعلى كفّار مكّة ومن شاكلهم أن يهجروا الكفر ويعتنقوا الإيمان. وحينما أصرّ الكافرون على كفرهم قيل لهم على سبيل التّهديد: اعملوا ما شئتم من موبقات فسوف تعاقبون عليها. إنّ الله تعالى بما تعملون بصير، فلا يخفى عليه إلحادكم في آياته عزّ وجلّ وقيامكم بعمل أهل النّار الّتي سوف تدخلونها يوم القيامة وتخلدون فيها.

---

[1] تفسير الطّبري ٢٤ / ٧٨ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

بالذّكر : بالقرآن[1] .

وإنّه لكتابٌ عزيز : بإعزاز الله إيّاه وحفظه من كلّ من أراد لـــه تبديلاً أو تحريفاً أو تغييراً من إنسيّ وجنيّ وشيطانٍ مارد[2] .

لا يأتـــيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه : لا يستطيع ذو باطل بكيده تغييره بكيده، وتبديل شيءٍ من معانيه عمّا هو به، وذلك هو الإتيان من بين يديه، والإلحاق ما ليس منه فيه ، وذلك إتيانه من خلفه[3] .

أأعجميّ وعربيّ : أقرآنٌ أعجميٌّ ولسانٌ عربيّ[4] .

وهـــو عليهم عمى : وهذا القرآن على قلوب هؤلاء المكذّبين به عميً عنه فلا يبصرون حججه عليهم وما فيه من مواعظ[5] .

---

(1) تفسير الطّبري ٢٤ / ٧٩ .
(2) تفسير الطّبري ٢٤ / ٧٩ .
(3) تفسير الطّبري ٢٤ / ٧٩ .
(4) تفسير الطّبري ٢٤ / ٨٠ .
(5) تفسير الطّبري ٢٤ / ٨١ .

أولئك ينادون من مكانٍ بعيد : قال ابن جرير : معناه كأنّ من يخاطبهم يناديهم من مكانٍ بعيد، لا يفهمون ما يقول[1] .

يصحّ أن يكون الحذف في القول : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ قد دلّ عليه الذّكر في الآية الكريمة السّابقة : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ﴾ وعليه يكون المعنى، والله تعالى أعلم : إنّ الّذين كفروا بالقرآن الكريم لمّا جاءهم على لسان محمّدٍ ﷺ لا يخفون علينا ولا يعجزوننا. وإنّ هذا القرآن الكريم لكتابٌ عزيزٌ، وذلك بإعزاز الله تعالى له، فهو كلامه المبين، وصراطه المستقيم. وقد أعزّ الله تعالى كلّ من ارتبط بهذا الكتاب العزيز بسبب.

وهذا الكتاب العزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه، فلا يستطيع شيءٌ ممّا سبقه وتقدّمه من علمٍ في أيّ صورةٍ من الصّور أن يبطل شيئاً ممّا جاء به هذا الكتاب العزيز، فهو المهيمن على ما قبله من كتاب، وهو المصدّق أو المصحّح لكلّ ما سبقه من علم أو فهم. وكذلك لا يأتي الباطل هذا الكتاب العزيز من خلفه. إنّ كلّ ما جاء به هذا الكتاب العزيز من علمٍ سابقٍ أو غيبٍ لاحقٍ هو الحقّ الّذي لا يمكن أن يتغيّر أو يتبدّل. وما ازدادت هذه الحقائق عن القرآن الكريم بمرور القرون إلاّ رسوخاً ووضوحاً. ولا ننسى أنّ العصر الّذي نزل فيه القرآن الكريم عصر ركودٍ علميٍّ عالميّ. ومن حقائق هذا الكتاب ما لايزال يكتشف اليوم وفي المستقبل إلى أن يرث عزّ وجلّ الأرض ومن عليها، لأنّ أسرار هذا الكتاب العزيز من الكثرة والعمق كأسرار السّماوات والأرض. وإنّ الّذي أنزل هذا الكتاب العزيز وحَفِظَه هو تعالى الّذي يعلم السّرّ في السّماوات والأرض.

---

[1] تفسير ابن كثير ٧ / ١٧٢ وتفسير الطّبري ٢٤ / ٨١ والجلالين .

وهـــذا الكتاب العزيز تتريل الله تعالى الحكيم في صنعه وتدبيره وقَدَره وفي كلّ شيءٍ، المحمود على كلّ حال.

وأنتَ يا محمّد أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم، ما يقول لك قومك كفّار مكّة إلاّ مـــا قـــد قال الكافرون السّابقون للرّسل من قبلك، فاصبر يا محمّد كما صبروا. إنّ ربّـــك أيّهـــا الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم لذو مغفرةٍ لمن تاب من ذنبه وأناب إليه جلّ وعـــلا. فعلى كفّار مكّة أن يتوبوا من شركهم وأن ينيبوا إلى الله تعالى. وإنّ ربّك لذو عقابٍ أليم لمن أصرّ على كفره حتّى لقي الله تعالى.

والعجيـــب في كفّار مكّة ومن شاكلهم من الكافرين أنّهم أئمّة البيان وفرسان الكـــلام وعجزوا عن الإتيان بمثل أقصر سورةٍ من سور القرآن الكريم، ومع كلّ ذلك فالإعـــراض عـــن القـــرآن الكريم هو موقفهم، والصّدّ عنه هو ديدنهم. وإذا كان هذا موقفهـــم مـــن القرآن الكريم الّذي نزل بلسانٍ عربيٍّ مبين ، فكيف به لو نزل بلسانٍ أعجميّ !

يبـــيّن الحقّ جلّ وعلا أن القرآن الكريم جعله عزّ وجلّ وعلا قرآناً أعجمياً لقال كفّار مكّة : هلا بيّنت آيات هذا الكتاب فتزل بلسانٍ عربيٍّ مبين، وهلاّ اتضحت معانيه وتعيّنـــت مراميه. أقرآنٌ أعجميّ ونبيّ عربيّ ! إنّ هذا الكتاب العزيز قد فصّل الله تعالى آياته وبيّن معانيها بلسانٍ عربيٍّ مبين، ومع ذلك يعرض عنه كفّار مكّة، فدلّ ذلك على أنّ القوم لا تنقصهم الحجّة، وأنّ فِطرهُمْ هي المعوجّة، وأنّ موقفهم هذا الرّفض المطلق للقرآن الكريم، والتكذيب الصّريح للرّسول العظيم ﷺ .

قـــل يا محمّد : هذا القرآن الكريم هدىً للّذين آمنوا من الضّلالة، وشفاءٌ لهم من الأمـــراض المعـــنويّة والحسّيّة. أمّا الّذين لا يؤمنون بالله تعالى والرّسول العظيم والقرآن الكـــريم فإنّ في آذانهم صمماً عن سماع القرآن الكريم سماع تدبّر، وهم لا يزدادون إلاّ

عمى بصيرةٍ على عمى بصيرتهم بمقدار استمرار تلاوة المؤمنين القرآن الكريم على مسامعهم، ولا يزداد الحجاب بينهم وبين المؤمنين إلاّ صفاقة ورسوخاً. وبذلك لا يستطيع صوت القرآن الكريم أن يتغلغل إلى أسماع القوم الكافرين، ولا يستطيع نور هدايته أن يخترق أبصارهم، أعني بصائرهم الّتي عميت. وهكذا تكون قلوب الكافرين في ليلٍ دائم، وظلامٍ دامس. إنّ أولئك الكافرين الّذين لا يستطيع القرآن الكريم أن يصل إلى أعماقهم كأنّما يدعوهم نداء الحقّ من مكانٍ بعيد، فهم لا يسمعونه، وكأنّما يقصدهم نور الهداية من مكانٍ سحيقٍ، فهم لايبصرونه.

وليس بخافٍ أنّ هذه الصّفات السّيّئة هي الّتي جاءت على ألسنتهم في الآية الكريمة الخامسة من السّورة الكريمة الّتي بيّنوا فيها وأعلنوا أنّ قلوبهم في أغطيةٍ تمنع صوت الحقّ ونور الهداية أن يتسلّلا إليها، وأنّ في آذانهم وقراً، وفي قلوبهم عمىً والعياذ بالله تعالى.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾

تأكيداً لتثبيت فؤاد المصطفى ﷺ تقول الآية الكريمة الأولى : ولقد آتينا موسى عليه السّلام الكتاب السّماويّ وهو التّوراة، فاختلف في هذا الكتاب أهله وهم اليهود بين مصدّقٍ ومكذّب، متّبعٍ ومبتدع، مؤمنٍ وكافر. فلست يا محمّد بِدْعاً من الرّسل ووحيداً فيما جئت به قومك من كتاب، وليس قومك بدعاً من الأقوام ووحيدين في

اختلافهم في الكتاب العزيز، فاصبر كما صبر أولو العزم من الرّسل، ومنهم موسى عليه السّلام، وأنت يا محمّد أحد أولي العزم من الرّسل بل زعيمهم.

ولــولا كــلمةٌ سبقت من ربّك عزّ وجلّ يا محمّد بإمهالهم حتّى انقضاء آجالهم وبــتأخير عذابهم إلى يوم القيامة إن لم يتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحاً وينيبوا، لقُضِي بينهم في هذه الحياة الأولى، ونالوا جزاءهم. وتمّ عذابهم. وإنّ كفّار مكّة لفي شكٍ من هذا الكتاب العزيز، وهو شكٌ يثير فيهم المزيد من الرّيبة والقلق وعدم الطّمأنينة .

ويُختم الجزء الرّابع والعشرون من المصحف الشّريف بالآية الكريمة التي تقرّر أنّ من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ وأراد بذلك العمل الصّالح وجه ربّه الأعلى وحده دون سواه فلنفسه ذلك العمل الصّالح، لأنّ ثوابه عائدٌ إليه. ومن عمل عملاً سيّئاً فعــلى نفســه ذلك العمل السّيّئ، لأنّ عقابه مرتدٌ عليه، وما ربّك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم وأيّها المؤمن بظلاّمٍ للعبيد، وذلك بحذف حسنةٍ وإضافة سيّئة، أو بإحلال العذاب قبل إرسال الرّسول، وإبلاغ الرّسالة وأداء الأمانة، وقيام الحجّة.

إنّ على كفّار مكّة أن يهجروا كبرى السيّئات وهو الشّرك، وأن يؤمنوا ويعملوا الصّالحات الّتي يريدون بها وجه الله تعالى كي يكونوا جزءاً لا يتجزأ من خير أمّةٍ أخرجت للنّاس، تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله تعالى وتعبده وحده دون سواه.

وصــلى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين . والحمد لله ربّ العالمين.

مكة المكرمة

صبيحة يوم السبت ٢٠/ ٤ / ١٤٢١هـ

الموافق ٢٢ / ٧ / ٢٠٠٠م

كتبه الفقير إلى عفو ربّه

د. حسن محمد باجودة

أستاذ الدراسات القرآنية البيانية

جامعة أم القرى بمكة المكرمة

فهرست الموضوعات

الموضوع	رقم الآيات	رقم الصفحة
المقدّمة		٧
أوّلاً : تمام سورة الزّمر		٩
بين يدي التّفسير		١٥
التّفسير		٢٥
١- مصير المكذّبين المشركين خزي الدّنيا والآخرة ومصير المصدّقين الموحّدين عزّ الدّنيا والآخرة .	٣٢ - ٤١	٢٧
٢- لله تعالى القادر على كلّ شيء الشّفاعةُ يوم القيامة ، والآلهة الّزائفة تخذل عابديها الذين يدخلون النّار.	٤٢ - ٥٢	٣٥
٣- قيام السّاعة، ودخول الكافرين النّار بعدل الله تعالى، ودخول المتقين الجنّة بفضل الله تعالى .	٥٣ - ٧٥	٤٣
تعقيب		٦٦
ثانياً : سورة غافر		٩٩
بين يدي التّفسير		١٠٩
التّفسير		١٢٧
١- الكتاب العزيز تنزيل الله تعالى مثيب التّائبين بالجنّة ومعاقب المستكبرين بالنّار	١ - ٩	١٢٩
٢- الله تعالى الواحد القهّار السّريع الحساب يحكم يوم القيامة بين الخلائق بالعدل .	١٠ - ٢٢	١٣٧
٣- إنقاذ الله تعالى موسى عليه السّلام ومؤمن آل فرعون من فرعون وآله الّذين حلّ بهم سوء العذاب في الأولى والآخرة	٢٣ - ٤٦	١٤٩

٤- مصير المتكبّرين المعرضين عن آيات الله تعالى نار الجحيم ، ومصير المؤمنين المتّقين جنّات النّعيم . ٤٧ - ٨٥ ١٦٥
تعقيب ١٨٣

ثالثاً : سورة فصّلت حتى نهاية الجزء الرّابع والعشرين ٢١١
بين يدي التّفسير ٢١٧
التّفسير ٢٣١
١- كفّار مكّة يعرضون عن القرآن الكريم والنّبيّ العظيم ، ولا يؤمنون بالبعث فويلٌ لهم. ١ - ٨ ٢٣٣
٢- خلق الله تعالى السّماوات والأرض في ستّة أيّامٍ فوحّدوه. ٩-١٢ ٢٤١
٣- صاعقةٌ أخَذَت عاداً وثمود. ١٣- ١٨ ٢٤٩
٤- أعداء الله تعالى من شياطين الإنس والجنّ حق عليهم القول بدخول جهنّم . ١٩ - ٢٩ ٢٥٥
٥- لا أحد أحسن قولاً ممّن دعا إلى الله تعالى وعمل صالحاً وقال إنّني من المسلمين . ٣٠ - ٣٦ ٢٦٥
٦- المشركون يصرّون على تكذيب آيات الله تعالى البيّنات الحسّيّة والمعنويّة وعقابهم وثواب المؤمنين . ٣٧ - ٤٦ ٢٧٣
فهرست الموضوعات ٢٨٤